كلام عن التضحية فى يوم الأضحى

أحييكم مهنئا بهذا العيد ، وأسأل الله أن يتقبل ضحاياكم فيه ، وفى كل لحظة من لحظات العمر ، وأن يجعلنا جميعًا أهلاً للتضحية فى يومها المبارك ، وفى جميع الأيام .

وإذا سألنا الله أن يجعلنا أهلاً للتضحية ، فإنما نسأله أن يجعلنا أهلاً لكل خلق كريم ، وكل عقيدة صالحة . لأن التضحية هى قوام جميع الأخلاق ، وعماد جميع العقائد ، وألصق الفرائض المختلفة بطبيعة الأديان .

فما الكرم فى الحقيقة ؟

إنه التضحية بشىء من المال أو بشىء مما يحبه الإنسان .

وما الشجاعة فى الحقيقة ؟

إنها التضحية ببعض الحياة أو بكل الحياة .

وما الصدق فى الحقيقة ؟

إنه التضحية بمنافع الكذب فى سبيل شرف الضمير .

وما حرية الرأى فى الحقيقة ؟

إنها التضحية بالراحة وبالوفاق مع الناس ، فى سبيل المصلحة العامة أو سبيل الأمانة للعقيدة .

فليس فى الأخلاق المحمودة خلق واحد يخلو من التضحية ، وليس للفضائل العالية معنى مفهوم بغير التضحية ، وليس من ذوى الشأن فى دنياه إنسان لا يستطيع التضحية فى كل مرحلة من مراحل حياته ، وكل علاقة من علاقاته ، بأبناء قومه وأبناء نوعه .

وإذا سألنا الله أن يجعلنا من أهل التضحية ، فقد سألناه أن يجعلنا من أهل الأخلاق ، ومن أهل المروءة ، ومن أهل الاقتدار .

أما العقائد الدينية فالتضحية ألصق بها من الأخلاق ، فقد وجدت التضحية فى الأديان الأولى قبل أن توجد الأخلاق العالية والفضائل المحمودة . وكانت فى العقائد الأولى مغالاة بالضحايا المفروضة على الإنسان ، لأنهم كانوا يفرضون عليه التضحية بأبنائه وبناته وذوى قرباه ، ولا يلتزمون الحدود التى التزمتها الأديان الكتابية بعد ذلك ، رمزًا إلى معنى التضحية وحثًا عليها فى نطاقها الإنسانى الذى ترضاه العواطف الكريمة ولا تنفر منه الطبائع السليمة . فنشأت العقائد والضحايا فى مهد واحد ، ولم يخل دين قديم ولا حديث ، من تقرير هذه الفريضة فى مواسمه العامة ، أو تقريرها فى كل حين فما الزكاة وما الصدقات فى جوهرها إلا ضحايا مفروضة فى كل أيام العمر ، غير مقصورة على عيد النحر ، أو مناسك الحج والعمرة من كل عام .

ولعل أنسب الأوقات للكلام على التضحية هى أوقات الحروب وأوقات ما بعد الحروب .

لأن الناس يجمعون بين النقيضين فى هذه الأوقات ، فيضحون بالأنفس والأبناء والأموال فى ميادين القتال ، ويفرطون من جهة أخرى فى الجشع والتكالب على الربح الحرام ، حتى يهون على أحدهم أن يجازف بأرواح الملايين ليساوم على الغذاء والكساء ، ويبيع الدواء بأفحش الأثمان فى الأسواق السوداء .

وأعجب العجائب هذه الصورة المتناقضة التى تعرضها الحروب للطبائع الإنسانية فى وقت واحد .

فنرى الإنسان فى ساحة الاستشهاد بطلا من أبطال المثل الأعلى فى الشجاعة والنخوة والمفاداة ، يتقدم الجندى إلى الموت الأليم وهو فى ريعان الشباب وربما استقبل الموت بالعراء حتى يلفظ النفس الأخير وهو لا يسمع صوت صديق ، ولا مؤاساة رحيم ، ولا يتطلع إلى دواء يخفف عنه بعض ما يعانيه ، ويلقَى الألوف - وألوف الألوف - أمثال هذا المصير فلا يلوى مصيرهم بالعزائم ، ولا يمنع غيرهم أن يتسابقوا إلى المورد الوبيل ، كأنه المورد العذب الكثير الزحام .

هذه ناحية من صور الطبيعة الإنسانية كما تمثلها لنا الحروب فى ميادين القتال .

أما الناحية الأخرى من الصورة فهى تهبط بالطبيعة الإنسانية

إلى قرارة الجحيم ومباءة الأبالسة والشياطين : لا رحمة ولا شرف ولا عقل ولا حياء . ولا همَّ للإنسان المتردى فى تلك القرارة إلا أن يجمع المال ، ولو استقطره من دماء الجياع والعراة والمساكين ، وجازف من أجله بمن يذودون عنه فى ساحة القتال ، ومن يقيمون معه فى وطن واحد يعم فيه المصاب جميع أبنائه ، ولو بعد حين .

وليس لمثل هذا الشيطان عذر معقول من هذا الجشع الأثيم . لأنه لا يتعب فيما يجمع ، ولا يسعى إليه بحيلة مشروعة . بل يستفيد فيه من المصائب التى تحيق بالأبرياء ، وأكثر ما يستفيد من غرق سفينة ، أو خراب مصنع ، أو طغيان طوفان جائح على زراعة ، أو انقطاع الصلات بين مكان ومكان . فإذا وقعت هذه الكوارث ضاعفها بما يزيدها هولا على هول وبلاء على بلاء : ضاعفها بحبس الأقوات ورفع الأسعار واستغلال جوع الفقير ومرض المحروم ولهفة الخائف وحيرة الأب المكلوم ، والأم المهددة بالثكل ، والطفل المهدد بالموت .

بل ليس لذلك الشيطان عذر مقبول ، لا من التعب فى جمع ماله ، ولا من التبصر فى إنفاقه ، لأنه ينفق أقوات ألف على سهرة فى حان ، ويعبث بالأعمار فى سبيل سويعات معدودات .

ذاك أعجب العجائب فى عصور الحروب . لأنها العصور التى ترينا أفضل ما فى الإنسان وأسفل ما فى الإنسان ، ولا تقف عند

الاعتدال بين التضحية المقدسة المحبوبة والجشع الجهنمى البغيض . ولكنها ترينا لهذا الإنسان العجيب وجهين متقابلين : أحدهما فى أوج السماء ، والآخر فى وهدة الجحيم . فلو تأتى أن تنقل أخباره إلى كائن من كائنات الكواكب العليا لأنكره وعدَّه من خرافات الأساطير ، وحسب أن الرواة ينقلون إليه أخبار الملائكة والأبالسة فى حومة نضال . ولا ينقلون إليه أخبار مخلوق واحد يسمى الإنسان .

وكتاب الدين – فى يوم من أيام الدين – أحق المراجع أن نرجع إليه فى وصف الإنسان ، كلما تراوح فى أيام المحن بين النقيضين : شرف الملائكة وخسة الشياطين .

فالقرآن الكريم يقول عن الإنسان : (إنا خلقناه فى أحسن تقويم) ويقول فى آدم : (وعلّم آدم الأسماء كلها) ويقول : (خلق الإنسان علمه البيان) .

هذا هو الإنسان فى صورته المثلى .

أما الإنسان فى صورته المقابلة لها فمن أوصافه فى الكتاب الكريم : (إن الإنسان لكفور مبين) .. (إن الإنسان لكنود) .. (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) .. (إن الإنسان خلق هلوعًا . إذا مسه الشر جزوعًا . وإذا مسه الخير منوعًا) .

فهل قيل هذا الوصف المبين فى إنسانين أو مخلوقين متناقضين ؟

إن ساكن المريخ فى حل من الشك فى وجود الإنسان إذا سمع ما يروى عن فضله ونبله ، وما يروى عن بغيه وجهله . ولكنا نحن لا نشك فى وجودنا ولا نرتاب ف صفحتى الصورة منا ، ولا نحسب أننا من خرافات الأساطير ، لأننا نجمع بين النقيضين ونلاقى بين الطرفين ، ونصنع ذلك فى وقت واحد لا فى وقتين متباعدين .

فماذا نقول إن لم نقل إن هذا الإنسان مخلوقان متناقضان ؟ إن القرآن الكريم ليقول لنا ما ينبغى أن نقوله ، وهو : (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير) .

فليس هو طبيعتين ، بل هو طبيعة واحدة تستجيب للحض والاستنهاض ، كما تستجيب للإغراء والإغواء ، ويكثر جوابها للدعوتين فى الجوانح العامة التى تشمل الملايين ، فتشمل كل ما فى الإنسان من خير وشر ، ومن كرم ولؤم ، ومن شرف وخسة ، ومن وفاء وكنود .

وليس بالنادر أن يلتبس الإنسان الواحد بالصورتين وينقاد لدعوة النبل والتضحية كما ينقاد لدعوة الجشع والجريمة . فمن الجائز جدًّا أن تقذف الحرب بالمستغلين الجشعين إلى ميادين القتال فإذ هم فى طليعة الشجعان والمجاهدين ، وأن تقذف الحرب

بالمقاتل المغوار إلى السوق السوداء ، فينسى الفداء ، ويتجر بالدماء ويمعن فى مطامع البيع والشراء .

يحدث هذا فى الجوانح العامة لأن الإنسان يندفع فيها مع التيار ، ويتوقف الاندفاع على التيار الذى يصادفه فى الطريق . فمن كانت له عصمة من نفسه عصمته وتحولت به إلى الطريق الذى يرضاه ، ومن كان فى طبعه أن يغمره التيار ، فالمعوَّل على التيار الذى يلاقيه ، ويدعو بالخير أو يدعو بالشر حيثما وقع منه الدعاء .

إن هذه النفس الإنسانية ترتفع بالأخلاق العالية على طريقتين : طريقة النسر الذى يصعد فى السماء بقوة جناحيه ، وطريقة الريشة التى تصعد فى السماء محمولة بقوة الرياح فى الأيام العاصفة .

وأوقات الحروب هى الأيام العاصفة فى أجواء النفوس الإنسانية ، ترتفع بكثير من الريش إلى أعالى الفضاء ، ثم تسكت العاصفة فلا يقوى ذلك الريش على البقاء فى عليائه بقوة جناحيه فيهبط إلى الرغام .

ولهذا نرى فى أعقاب الحروب كيف ينقلب الناس من التضحية إلى عبادة المنفعة العاجلة فى أيام معدودات لأن الذين رفعتهم العاصفة إلى سماء التضحية يعودون إلى الأرض أشد الناس كفرانًا بمبادئ التضحية والفداء ، ويزيدهم كفرانًا بهذه المبادئ

أنهم ينظرون إلى منافع الحرب فى أيدى الطامعين المستغلين ويذكرون أنهم هم الذين جاهدوا وخاطروا بالروح والراحة وأيديهم صفر من المنفعة ومن العمل ، بل من القوت الكفاف فى بعض الأحيان ، فإذا نظروا إلى الطامعين يتمتعون بالراحة والرخاء فى أيام الحرب وأيام السلام ، ونظروا إلى أنفسهم وقد حرموا الراحة والرفاء محاربين مسالمين - فمن الكثير عليهم أن يحافظوا على مبادئ التضحية والفداء بعد هذه المحنة الغاشية ، ومن الطبيعى فى حالتهم هذه أن ينقلبوا من السماء إلى الحضيض ، ولهم بعض العذر فى هذا الانقلاب .

نعم هم معذورون فى انقلابهم من النقيض إلى النقيض ، لأن الأخلاق فى أوقات الكوارث العظمى - مسألة اجتماعية وليست بالمسألة الفردية ، فمن الواجب على المسئولين فى الجماعات والأمم أن يحاربوا الاستغلال محافظة على الأخلاق : أخلاق المستغلين وأخلاق المجاهدين على السواء ، فإن عزت عليهم محاربة الاستغلال كله - فمن الواجب أن يقاسموا المستغلين أرباحهم ، بفرض الضرائب عليهم ، وتحويل تلك الضرائب إلى منفعة المحرومين ، الذين سلبتهم الحروب ما عندهم ولم يكن لهم نصيب فى أسلابها .

فمن الإفراط فى الرجاء أن نرجو من الناس جميعًا قداسة الملائكة ، وهم يعيشون فى غمار الفتن والضرورات .

إلا أننا نعود فنقول : إن فضيلة التضحية تتوقف على أعمال الجماعات والشعوب ، أو على أعمال الحكومة والحكام ، ولكنها لا تستغنى بعد كل عمل من أعمال الجماعة ، وبعد كل عمل من أعمال الفرد – عن عقيدة الضمير ، وعن الإيمان بالله .

فمن الحسن أن تعاودنا الأيام ، فى كل عام ، بيوم نذكر فيه هذه الحقيقة المتجددة : يوم يجمع بين التهنئة وبين التذكير ، أو يوم يسوق لنا الموعظة فى مساق الفرح والبشرى . وهو عيد الأضحى الذى تهنئون به ، ونرجو أن تهنئوا به فى كل عام .